من ذكريات لندن

عربيـــد

للأستاذ عمر الدسوقي

فى لندن للمصريين نَدِىّ ، يختلف إليه الأخيار والأشرار ؛ بعضهم لرؤية صديق ، أو التزود من أبناء الوطن ، أو الاستجمام من عناء الدرس ؛ وبعضهم لقتل الوقت فى لعب الميسر واللهو فى غير كرامة ولا وقار

وكانت لنا فيه جلسات ممتعة ، لمصر منها قِسط الأسد ، ننتقد الساسة من غير تحرج ولا هيبة ، وننقد خطط الإصلاح الجريئة ، وتنفطر قلوبنا أسى ولوعة على مصر وما تعانيه ، ونحتدم فى جدال عنيف كله لمصر ولخير مصر

وفى ذات مساء ، بينما نحن جلوس حول المدفأة ، ندفع بحر ناره زمهرير الشتاء ، نجول ونصول كعادتنا ، فى السياسة تارة وفى الأدب أخرى ، إذ دخل علينا فتى فى شرخ الشباب ، رَبعةَ عريض المنكبين ، غائر العينين ، بارز الجبهة ، أسمر البشرة ؛ فحيا بأدب ، ثم اتخذ مجلسه بيننا ، ينصت إلينا ولا يشاركنا ، ثم بدا له فزج بنفسه فى الحديث ، وخب فيه ووضع ، وبعد لأى قصّ علينا قصته ، قال :

جئت ناديكم اليوم ، أطلب الغياث والنجدة ، فقد نزحت إلى لندن طلباً للعلم منذ شهرين ، وأقمت مع زوجى وابنتى الصغيرة فى منزل مؤثث ؛ وفى ذات يوم تسلمت كتاباً من سيدة انجليزية ، تعرض فيه استعدادها لخدمتنا ، مدة شهر الصوم ، وتدعى أنها مسلمة من ذوات التقى والورع ، وأن الذى حداها للكتابة إلينا ، إشفاقها علينا ، فخدعنا بكتابها المعسول ، وبرحنا منزلنا إلى منزلها ؛ وقضينا اليوم الأول لا نلاقى إلا كرماً وأريحية ، فذهبت الوحشة ، واطمأنت النفوس ؛ وخرجت فى اليوم التالى مبكراً ، وأبت متأخراً ، فوجدت زوجى تبكى وتنتحب ، وقد ضمت طفلتها إلى صدرها ، فسألتها ، ما بالُها ؟

— لقد مر بنا يوم عبوس قمطرير ، قفّت فيه أوصالنا من القر ، وجمدت أطرافنا من البرد ، وجاعت فيه الطفلة حتى أشرفت على الموت ، واستغثنا ربة البيت مراراً ، فلم يزدها نداؤنا إلا إعراضاً عنا وازوراراً . ذهبت إليها أستعطفها وأسترحمها ، فأرتنى وجهاً كالحاً كئيباً ، وأسمعتنى من هجر الكلام ما تعافه آذان الأحرار ، وهاأنت ذا ترانى أعانى والطفلة السغب والبرد ، وأضمها إلى صدرى لعلها واجدة فيه دفئاً أو سلوى

— ويل لها من كذوب ماكرة ! هكذا قلت ، وأنا أنتفض غيظاً وموْجدة ، وبودى لو أذهب إليها فأحطم رأسها أو أهشم عظمها ، أو أمزّقها إرباً ، ولكن عنّ لى أن أستعمل الحيلة حتى أخلص منها لا علىّ ولا لى . فغادرنا المنزل تواً ، وتركنا متاعنا إلى الصباح ، ثم أرسلت من يحضره ، فأبت أن ترد إلينا . فقلت : يا للعجب ! إنى قد وقعت منها على داهية ؛ وأسرعت إلى منزلها غضبان أسفاً ، فاستدرجتنى حتى دخلت إحدى الغرف ، ثم أوصدت الباب وأحكمت رتاجه ، وأخذت تهدد وتتوعد ، وتبرق وترعد . وتقول : قد أتلفتم أثاث المنزل ولن تبرح حتى تنقدنى عشرين جنيهاً ، أو تكتب بها صكاً ؛ فكتبت ما شاءت فداء لنفسى ، وإبقاء عليها ؛ وخرجت لا ألوى على شىء ، وذهبت من فورى إلى محل الشرطة ، وذكرت ما عانيته منها ، فصحبنى أحد رجاله ؛ وما إن رأته حتى اصفر وجهها فرقاً ورعباً ؛ فسألها عن الصك فأنكرته . فقال : إنى على ذلك شهيد ، وأخرج أمتعتى عنوة ، وحذرها بالعقاب الأليم إن هى فكرت فى إيذائى . فانطلقت شاكراً له ، وحمدت الله على أن نجوت من مخالبها

ولكن وا أسفاه ! قد طاردنى شرها فى كل مكان ، فضاقت علىّ الأرض بما رحبت ؛ إذ أنها كتبت للارسالية تصمنى بالعربدة ؛ ومرضت زوجتى وطفلتى من أثر ذلك اليوم المشئوم ؛ وقد نصحنى الأطباء ألاّ أبقيهما يوماً واحداً فى لندن حيث لا يعين جوها على البرء والشفاء ؛ فودعتهما والدموع تنهمر ، والقلب ينفطر ، وسافرا إلى مصر على ما بهما من مرض ، وعدت أدراجى إلى منزلى وحيداً غريباً ، لا أجد مواسياً أو حبيباً

وهأنذا يا سادتى ، أناشدكم أواصر الوطنية والإخاء ، إلاّ أقلتمونى من عثرتى ، وانتشلتمونى من وهدتى . فقد حجب الحزن بصرى عن النظر ، وغشّ الأسى قلبى عن التفكير ، وكل ما أبغيه أسرة تحنو علىّ ، وتأسو ذلك الجرح حتى يندمل ، وتعيننى بعطفها على الدرس ، وبحسن معاملتها على السلوى

فحركت مأساته الأفئدة رثاء له وحدباً عليه ، وعلت الآهات

والزفرات توجعاً لمصابه ، وأخذنا نقدح زناد الفكر حتى اهتدينا إلى سبيل نزود به وحشته ، ونخفف كربته ، فقلت:

— إنى أقيم فى أسرة أحلتنى مكاناً علياً ، وأنا عندهم ملء السمع والبصر ، أتقلب فى أعطاف الهناءة والدعة ، فإن شئت أن تشاطرنى ما أتمتع به من الراحة والطمأنينة ، فلن تزيدنى إلا سروراً

— شكراً لك ، ثم شكراً ؛ إنى محتاج ليد قوية رشيدة فى هذا البلد الغريب تهدينى سبيل الحق حتى أقف على أسراره وعاداته ، ولن يسعنى حيال هذه السماحة إلا القبول ، والثناء العاطر ، والاعتراف بالجميل

— هيا بنا الآن أريك المنزل وأقدمك للأسرة ، وكن واثقاً بأنهم سيضمونك فى منزلة العزيز المكرم

أخذت ألح له أثناء الطريق بما يؤهله لاكتساب محبة الناس فى هذه البلاد ، وأننا هنا رسل الدعاية لمصر البائسة ، فلزام علينا أن نتحاشى السفاسف والدنايا ، وأن الأسرة التى سيقيم فيها ، تربأ بمنزلها أن يدنس ، أو يكون موئلاً للفحش والخنا ، أو يكون ضيفها عربيداً ماجناً ، وخليعاً مستهتراً ؛ لأنها متزمتة وقورة ، وربها أستاذ كبير فى الموسيقى ، ولم ير منى إلا كل ما يشرح صدره ، ولم أعهد عليه إلا التفانى فى سبيل راحتى

بدت على محياه أمارات الارتياح ، وأكد لى أنه سيكون مضرب الأمثال فى نبل الأخلاق والرجولة ، وأنى سأكون فخوراً بصحبته ، تياهاً بخلاله وسجاياه

قدمته للأسرة وزكيته وأطنبت فى مديحه ، وقصصت ما لاقاه من عنت وإرهاق ، فرثوا لحاله ورحبوا به ، وأخذوا يمحون من مخيلته هذه الصورة المزرية عن بلاد الإنجليز وخلال أبناء التاميز ، بحديثهم الحلو ومداعباتهم الطريفة

مضى على صاحبنا أسبوع ، بدا فيه نموذجاً عالياً للأدب والظرف والدماثة والوقار ، فزدنا فى إكرامه والاحتفاء به . بيد أنه أخذ يتخلف عن جلسات الأسرة بعد العشاء ، ويلزم الصمت أثناء الطعام ، ثم يفر إلى غرفته فرار الظليم ، فرابنا أمره وخشينا أن تكون قد حلت به كارثة ، فتبعته مرة ، وطرقت باب غرفته ، فلم يجب ، فواصلت الطرق فترة غير وجيزة ، وأنا أناشـده الله إلا أفضى إلىّ بدخيلته ، وبدواعى وجومه وعبوسه ؛ ففتح بعد لأى ، وشرر الغيظ يتطاير من عينيه ، وفى وجهه إكفهرار وامتقاع ، ويداه ترتعدان كالمحموم ، وابتدرنى قائلاً بصوت متهدج يفصح عن الوجل والحنق :

— ماذا تريد ؟ لن أسمح لك بدخول حجرتى ، أقصر عطفك على نفسك ، فلست حدثاً غراً !

— آسف يا هذا ! فلم يدر بخلدى أن مثلك ، وقد كان بالأمس سمحاً وديعاً ، سيظهر اليوم سافلاً وضيعاً ، ما حفزنى للمجىء إليك إلا عطفى عليك ، وظننت أنك تقاسى همًّا دفيناً ، وأنك ستهش لحديثى وتبش ، وقد جئتك لأسرى عنك ، أما وقد طرقت أذنىّ كلماتك البذيئة ، فأعد نفسى متطفلاً وأنت وشأنك

انطلقت إلى غرفتى ، موهماً الأسرة أنى لا أزال عنده وأخذت أفكر فيما عساه يكون سره ، ولم حرص جد الحرص على عدم السماح لى بدخول مخدعه ، ولكن أعيانى الفكر ، فلم أهتد إلى إجابة مقنعة ، بيد أن الشك أخذ يساورنى ، ويخيله إلىّ شيطاناً مريداً ، قد أتى أمراً إداً ، ورغب فى إخفائه عنا

جاءتنى ربة المنزل بعد يومين وأنا أتناول طعام الفطور وقالت :

— إن صاحبك هذا مأفون معتوه ، فقد خرج بملابس النوم فى الطريق لابتياع إحدى الصحف ، ولا ريب أن هذا مخل بالآداب فى عرفنا وتقاليدنا ، وأخشى أن يراه رجل الشرطة فيقبض عليه

تركت الخوان مسرعاً ؛ وهرولت وراءه ، وحاولت أن أرده إلى مثواه ، وأبين له أن خروجه هكذا خطل سيعرضه للبرد القارس ، والانتقاد المر ، وتدخل رجال الأمن ، وأن انجلترا ليست كمصر فوضى لا يعرف الناس فيها نظاماً للأزياء

— لقد نهيتك من ذى قبل ألا تُعنَى بأمرى ، وأن تدعنى وشأنى ، فأنا أعرف بآداب اللياقة منك

— إننا أبناء وطن واحد ، وما يلحقك من العار والمهانة سيلحقنى كذلك ؛ لن يتحدث الناس هنا بأن فلاناً أخطأ ، بل سيقولون : أحد المصريين أجرم ؛ فرفقاً بسمعتنا ، وتقبل نصحى ، فقد مضى علىّ بهذه الديار أمد غير قصير

عاد إلى المنزل وهو يزمجر كمن أخذته العزة بالإثم ، وكبر عليه أن ينصاع لطلبة غيره

عزوت كل هذه التصرفات لجهله بعادات القوم ، فلم آبه لتعنيفه وتقريعه ، وأخذت ألتمس العلل والمعاذير لكل ما يصدر عنه من فعال يندى منها الجبين خجلا أمام أناس لا يذكرون

عن مصر إلا الشوه من الحقائق . ولكن صاحبنا ظل سادراً فى غوايته لا يستمع لموعظة ، أو يتعلم من تجربة ؛ فجاءت ربة البيت فى ظهيرة أحد الأيام ، وطلب منها أن تطهى له دجاجة على الطريقة المصرية ، فاعتذرت بأنها لا تعرف قليلاً أو كثيراً عن الطعام المصرى ، وأولى له أن يباشر طهيها بنفسه ، إن كان لا يزال على رأيه .

فأخذ يكيل لها السباب ، ويؤول رفضها باتهامها له ، وعدم تقديره ، ولج فى وقاحته وسلاطته حتى أبكاها .

فذهبت محنقة تتميز من الغيظ ، وانتظرت مقدمى على أحر من الجمر ، وما أن دخلت المنزل حتى قصت على قصته منفعلة ، وأصرت على طرده من المنزل ، لأنها لم تسمع مثل هذه البذاءة طوال حياتها ؛ فأخذت أهون عليها الأمر ، وأعذر تصرفه هذا لشدة حساسيته ، شأن كل غريب فى بداية حياته ببلاد لم يألف طباع أهلها .

ضقت بهذا الغبى ذرعاً ، ولعنت الساعة التى لاحت فيها طلعته الكئيبة علينا ؛ وأعملت الفكر عسى أن أوفق إلى سبيل أصرف به هذا الوباء ، وقد أصبح كالدمل المد ، أحمله فى رقعة من جلدى ، ينغص علىّ هناءتى ، ويكدر راحتى . أى شيطان رجيم سول له أن يطهى دجاجة على الطريقة المصرية ؟ ذهبت علنى أجد عنده جواباً شافياً ، وطرقت بابه بشدة وغضب ، وفى عزمى أن أعطيه درساً لا ينسى ؛ فسمعت همس سيدة من الداخل تحذره من الفضيحة إن استجاب لقرعى ، بيد أنه فتح الباب على مصراعيه ، وقال بصوت المستهتر الماجن المجازف ، الذى غاض الحياء من وجهه وكان يترنح سكراً ، ويبتسم ابتسامة داعرة :

— هذه فلانة ، وقد كانت هنا حينما أنبتك فى المرة السالفة على طرقك بابى ، وأبيتُ أن أدخلك غرفتى ؛ ولا يعنينى الآن ، أن تطلع على ما كنت أخفيه ، فسوف أنتهج طريق العربدة ، ولا أعيرك أو غيرك التفاتا .

— لكنك رجل متزوج ، ولك طفلة ، وهذا مُزْرٍ بك ، محط لقدرك ، وسيلهب أهل المنزل عليك سخطاً وغضباً ؛ ثم إن ما تأتيه من المنكر ، مخالف للقانون ، فليس هذا بيتاً من بيوت الخنا والدعارة ، ويخيل إلىّ أن رفيقتك لم تبلغ بعد سن الرشد ، وسيكون جزاؤك ، إن فضح أمرك ، السجن أو الطرد من هذه الديار ، فعجل بإخراجها ، وإلا داهمك رجال الشرطة .

— ها ها ... ها ها ... ! نعم أنا متزوج ، ولكنى أرسلت زوجتى إلى مصر تخلصاً منها ، لا لمرضها كما أخبرتك كذباً ؛ ولست أعبأ بما يحط من قدرى فى هذه البلاد ، فقد استمرأت هذه الحياة بمصر وأنا لا أزال عزباً ؛ أنا مستعد لأذكر لك تاريخ حياتى ، إنى رفعت راية الشر والفسق عالية خفاقة ، وما تزوجت رغبة فى الزواج ، ولكن طمعاً فى مال من تزوجتها ؛ وقد تنازلت لى الساذجة عن كل ما تملك ، فليس ثمة حاجة إليها بعد ذلك ، بل إنى أريد أن أبين منها إلى الأبد ، حتى أكون حراً طليقاً . نحن نختلف ، يا صديق ، فى نظرتنا إلى الحياة ؛ ولست أخشى رجال الشرطة ، فما أتت هذه الفتاة إلا طواعية واختياراً ؛ ولن أترك المنزل ، بل عليك أنت أن تغادره ، إذا كان مقامى به يزعج وقارك وتزمتك . لِمَ لا أنهل من مورد اللذات وأتمل ، أينما شئت وكيف شئت ؟ أليست هذه بلاد الحرية كما ينعتها قاطنوها ؟ ليست هذه أول فتاة وليس ما ترى أول كأس من الخمر أحتسيها ، افعل ما شئت ! !

— أيها الوغد الدميم ، إنك تبحث عن حتفك بظلفك ، ولن تجد منى بعد الساعة هوادة فى التنكيل بك ، تطهيراً للمجتمع من خبالاته ، وعبرة لأمثالك الطائشين ، الذين لا خلاق لهم ، ولا ضمير يعنفهم ، ولا شرف يردعهم .

أخبرت ربة البيت بكل ما حدث ، فاقشعر بدنها هلعاً ، وقطبت أساريرها احتقاراً ، وعدت ابنتها تنادى رجل الشرطة ؛ ولكن الطير قد أفلت من سجنه ، فلم تقف للفتاة على أثر ، وطُرد العريد شر طردة ، ووضع تحت مراقبة شديدة صارمة .

هجر لندن بعد أن سدت فى وجهه المسالك أتى ذهب ، وأقام فى إحدى ضواحيها غير متوان عن الغواية والضلال .

علم أترابى الذين سمعوا قصته الأولى بما آل إليه أمره ، وما اقترف فى حق مصر من الآثام ، وما لطخ به سمعتنا من الوصمات ، فعزموا على شكايته للقنصلية المصرية ، حتى تقصيه ، ولكن رقت قلوبهم فلم يفعلوا ، وإن كان عجبهم قد بلغ أشده ، حينما علموا أنه من أعضاء البعثات ، وأنه طلق زوجه فى النهاية .

ليت شعرى لِمَ يُوفد مثل هذا ؟ أليكون سبة لنا وعاراً علينا ، ومثلاً حياً متنقلاً تقذى منه العيون ، ويعافه المجتمع ، ويلعنه الناس أينما حل ، والبلاد التى لفظته ، والأمة التى ينتمى إليها ؟ ؟

محمد السرقى

أسـطورة ... !

(تصوير صربان)

قالوا : وكيف كان ذلك ؟

قال الراوي: زعموا أن الرئيس رزفلت سفير السلام بين السامية والآرية، ورسول الوئام بين الديمقراطية والديكتاتورية، أولم لأقطاب الحكم في الدول الأربع ذوات الرأي في مصير العالم اليوم وليمة ليستخرج من بين الأفواه والكروش ، علل الخلاف بين الأساطيل والجيوش . فلما فرغت الصحون ، وامتلأت البطون ، دارت الكؤوس ، فدارت الرؤوس ، ونم كل لسان بكمين سره

قال الدتشي وقد نهض معتمداً على كتف الفوهرر :

إن تشمبرلين ودلادييه لا يزالان على الرياء القديم يتبجحان بالحرية والمدنية والسلام ، وهما يخفيان وراء الحرية استعباد الشرق ، ووراء المدنية اهتضام الحق ، ووراء السلام الجبن والشطارة . أما أنا وهتلر فبدأنا أننا عراة جياع ، وسياستنا الصراع لا الخداع ، ووسيلتنا الإخضاع لا الإقناع . فإذا جنح خصومنا للسلام ، فليقاسمونا ما في أيديهم من الطعام ، وإلا فالحرب التي تجعلنا سواء في الضعف ، إن لم تظهرنا عليهم بالقوة

فنظر السيد رزفلت إلى عميدي الديمقراطية فوجدهما يتلاحظان ولا يتكلمان . فقال للرؤساء جميعاً :

— إن الذئاب تتهارش ولا تتفارس . وإني أراكم متفقين على الغاية، بعضكم بالطيش وبعضكم بالحذر، وموافقين على هذا الرأي، بعضكم بالكلام وبعضكم بالنظر . وليس أمامكم ما يقبل القسمة إلا بلاد العروبة ! فهي التي غزتها فرنسا بالتعليم والربا ، وفرقتها أمريكا بالتبشير والهدى ، ومزقتها انجلترا بالتفريق والتجارة . وفي تقسيم القارتين العجوزين بينكم على السواء ، نجاة المدنية والديمقراطية من الفناء

قال الراوي : فانبسطت أسارير الرؤساء لهذا الرأي الصريح، وشربوا كما ترى نخب هذا الحل المريح !

ابن عبد الملك